شوقي ضيف وتحقيق التراث

أ.د. حسين نصار(*)

الدكتور شوقي ضيف - في اعتقادي - له صورةٌ واضحةٌ دقيقةٌ في أذهان المتصلين بالثقافة العربيّة، هي صورة مؤرّخ الأدب العربي، والأدب العربي القديم بخاصة، فهو - في ظني - صاحبُ أكبر موسوعةٍ أرّخت للأدب العربي منذ مولده.

أما الذين تشتدُّ الصلة بينهم وبين الثقافة العربية فيوسّعون هذه الصورة بإضافة مجالات أخرى كثيرة؛ يقرب بعضها من تاريخ الأدب، ويبعد بعضها الآخر، إذ يذكرون مساهماته الأخرى في البلاغة والنقد والنحو والتفسير.

إذن لي الحقُّ أنْ أقولَ: إن شوقي ضيف واحدٌ من كبار رجال التراث العربي، لا الأدب وحده. وأعني بذلك أحد كبار دارسي التراث. أمّا تحقيقُ التراث فلا تضارع جهوده فيه جهوده في الدراسة؛ فقد انفرد - فيما أذكر - بتحقيق ستة كتب، هي:

أ- الرد على النحاة، لابن مضاء الأندلسي (١٩٤٧)

ب- رسائل الصاحب بن عباد (١٩٤٨)

ج- نقط العروس في تواريخ الخلفاء، لابن حزم (١٩٥١)

د- المغرب في حلى المغرب - القسم الخاص بالأندلس (١٩٥٣)

هـ - الدرر في اختصار المغازي والسير، لابن عبد البر (١٩٦٦)

و- السبعة في القراءات، لابن مجاهد (١٩٧٢)

واشترك مع الأستاذ أحمد أمين وإحسان عباس في تحقيق القسم المصري من "خريدة القصر وجريدة العصر"، للعماد الأصفهاني (١٩٥١)، ومع الدكتور زكي محمد حسن و الدكتورة سيدة إسماعيل الكاشف في تحقيق الجزء الأول من القسم المصري من "المغرب في حلى المغرب" (١٩٥٣).

(*) أستاذ الأدب العربي بجامعة القاهرة، ومقرر اللجنة المشرفة على مركز تحقيق التراث بدار الكتب المصرية.

ومع ذلك فالدكتور شوقي ضيف عارفٌ أحسنَ المعرفة بأهمية التحقيق لمؤرِّخ الأدب ودارسه، فلا ريبَ عنده في أنّ نشرَ النصوص ودراستها أولُ خطوةٍ ينبغي أَنْ يبدأ بها مَنْ يتحدثون عن أدب أمة من الأمم. (خريدة ق).

فالمخطوط المحقّقُ قد يحمل الحقائق الأدبية التي نجهلها، فتدفع الدارسين دفعًا إلى أن يعيدوا النظرَ في دراساتهم وما نثروه من أحكام فيها؛ فيعدلوا في هذه الأحكام تارةً، ويلغوها ويثبتوا موضعها أحكاما جديدة تارة أخرى. (مغرب الأندلس ح).

وراعى الدكتور شوقي ضيف في الكتب التي حقّقها أَنْ تكونَ لها قيمتها الخاصة التي تجعلها جديرة بالإحياء. فقد كان ابن مضاء - مؤلّف أوّل كتاب حقّقه - "مقرئًا مجوّدًا، محدّثًا مكثرًا، قديم السماع، واسع الرواية، عارفًا بالأصول والكلام والطب والحساب والهندسة، ثاقب الذهن، متوقدَ الذكاء، شاعرًا بارعًا، كاتبًا". (الرد ١).

واستدلَّ من كتابه أنه "صفّى النحو العربي، لا من نظرية العامل فقط، بل من كل ما يتصل بتصعيبه وتعقيده. وبذلك وضع تحت أعين الباحثين - من بعده - خيرَ الطرق التي يحسن بهم أَنْ يتّبعوها في إصلاح النحو العربي إصلاحًا لا يقوم على اقتراح علل ثوان وثوالث مكان علل قديمة...، وإنما يقوم على احترام العمل القديم، وتخليصه من كل ما يعوق جريانه وانطلاقه في العقول والأفهام". (الرد ١٢).

وكان ابن عبّاد - مؤلّف الكتاب الثاني - على مكانته في الأدب، وذيوع صيته فيه، وتوليه الوزارة زمنًا مديدًا في القرن الرابع، عصر ازدهار الكتابة العربية - لم تنشر رسائله؛ فلم يقدّر الأدباء مكانته بين كُتّاب عصره، إلا بما قرأوا في كتب الأدب نُبذاً من كلامه، أو إطراءً لأدبه، أو نقدًا لطريقته. (٢).

وأبان قيمة رسائله، فرآها في مجالين:

أ - قيمة تاريخية؛ لأنها وثائق تاريخية مهمة عن العصر البويهي.

ب- قيمة أدبية أعظم من القيمة التاريخية؛ إذ نطلع منها على رسوم الكتابة الديوانية في إيران لهذه العصور؛ لأنه لم يُنشر - قبلها - لوزير من وزراء بني بويه مجموعٌ من الرسائل يماثلها، بل لقد ضاعت رسائل هؤلاء الوزراء جملة، ولم يبق منها إلا قليل موجود في "يتيمة الدهر" للثعالبي، و"معجم الأدباء" لياقوت. . . وغيرهما من كتب الأدب. (ف).

ورأى القسم المصري من "الخريدة" نفيسًا يتميز بمجموعتين من القيم:

أما أُولاهما فقيم ذاتية تصورها المنتخبات التي تنخلها العماد لكل شاعر، وما ادخرت من جمال فني. فقد جمع بين دفتيْ هذا القسم كل ما استطاع من عيون النماذج وفرائدها، وغرائب الأساليب ونواصعها، وبدائع الصور وعجائبها، ولطائف المعاني ودقائقها.

وأما ثانيتهما فقيمٌ موضوعية، ترجع إلى تمثيل هذا القسم لجوانب الحياتين: السياسية والاجتماعية في مصر في أثناء القرن السادس، وما اضطرب فيه الشعراء من ظروف مادية وروحية.

فهو إذن أوّلُ نصٍّ قيم ينشر في تاريخ الشعر المصري، ويمثل عصرًا زاهيًا من عصوره. (ص).

كذلك عُدّ ابنُ حزم القمة التي وصلت إليها الآداب والثقافة في عصر الخلفاء الأمويين، والشطر الأول من عصر ملوك الطوائف، وكل عملٍ له جديرًا بالعناية والاهتمام.

كان - سواء في شخصيته أو ثقافته أو أدبه - خيرَ ثمرة قدمتها قرطبة حتى عصره للناس، نشيطاً إلى أبعد حدود النشاط، أَلّفَ في مختلف فروع الثقافة، وأظهر عبقرية فذّة في كلِ ما أَلّف ودون في: الفقه والأصول والمنطق والكلام والفرق والتاريخ. (٤٤).

ووجد محمد بن فتوح الحميدي - راوي الرسالة - أحد تلامذة ابن حزم، الذين أجاز لهم رواية جميع كتبه، ومن أجل ذلك تكون روايته ذات قيمة حقيقية (٤١).

أمّا الرسالة فعَدَّهَا نصًّا نفيسًا؛ إذ ضمّت الخطوطَ العامة للخلافة الإسلامية والخلفاء حتى عصر ابن حزم، سواء ما اتصل بإقامة هذا النظام، وانتقاله من عصر إلى عصر ومن خليفة إلى خليفة، بعهدٍ أو مغالبة، وما أصاب هذا النظام من تدهور وفساد، شهد ابن حزم بعينيه منه جوانب في

بلده. وتفيض في تفاصيل شخصية كثيرة عن الخلفاء وأبنائهم ونسائهم، وحتى مَن تسمّى بالخلافة من غير قريش، ومَنْ أراد أن يتسمّى بها ثم امتنع. فهي خير معين لمَن يريد أن يدرس نظام الخلافة الإسلامية، ويطلع على حسناته وعيوبه. فالمؤلف لم يترك من ذلك شيئًا إلا أحصاه، وله في ذلك عقلية ممتازة. (٤٤،٤٥).

ووجد "المُغرب" أيضًا كتابًا نفيسًا، توارثه مؤلفوه الستة مدة مائة وخمس عشرة سنة، واصلين فيه كلالَ الليل بكلالِ النهار، ينقحون ويهذبون، حتى لا يعرضوا إلا الصافي الخالص من جواهر الشعر، وما يخطف سناه الأبصار من الموشحات والأزجال.

وأَرْجَعَ منزلَه الكبيرة إلى أمور ثلاثة:

الأول: أنه حفظ لنا بعض كتب التاريخ ذات الشأن العظيم.

والثاني: أنه ربط بين التاريخ وتقويم البلدان (الجغرافيا).

والثالث: أنه اعتمد على الرواية الشفوية اعتمادًا عظيمًا.

ووجد نفسه وهو يفحص "الدرر" بإزاء سيرةٍ نبويّةٍ محرّرة، سيرة لا تعتمد على كتب السيرة المشهورة وحدها، بل تعتمد - أيضًا - على كتب الحديث ورواية الموثّقين، مع الموازنة بين الأخبار والأحاديث، واستخلاص الآراء الصحيحة، ومع الوفاء بالدقة في أسماء الأعلام، ومع التوقف في موضع التوقف والنفوذ إلى الرأي السليم، ومع المعرفة الواسعة بالحديث ورجاله، وتمييز صحيفه من زائفه". (١٤).

وكان شوقي ضيف نقّادةً في النسخ التي اعتمد عليها في التحقيق؛ فاعتمد في "رسائل الصاحب" على نسخة كتبها عليّ بن أحمد بن زكريا، المعروف بابن الشصاص البغدادي في همذان سنة ٥٧٧ هـ، دَوّن عناواناتها بخط الثلث، وسائرها بخط النسخ، وأتمّ إعجامَها إلا ما سها عنه، وميّز بين الحروف المهملة - كالحاء والراء والسين - والحروف المعجمة التي تشتبه بها واضحة. وفي الجملة فقد كانت كتابتُها واضحةً.

واعتمد في تحقيق "الخريدة" على نسختين:

إحداهما مصوّرةٌ عن مخطوطة في المكتبة الأهلية بباريس، وهي مخطوطة قديمة كُتبت في عصر قريب من عصر العماد المؤلِّف، وربما نُسِخت من نفس نسخته. وكُتبت بخط نسخ حسن، وعنواناتها بخط الثلث، وإعجامها تام، وشكلها كامل ودقيق. (ي).

والثانية مصورة عن مكتبة نور عثمانية بالآستانة، ويغلب على الظنِّ أَنْ تكونَ كُتِبت في القرن التاسع الهجري. وهي بخط نسخ صغير ما عدا عنواناتها، فقد كُتبت بخط الثلث، وإعجامها كامل، وشكلها كثير. (و، ي).

واعتمد في "نقط العروس" على نسخة قديمة محفوظة في مكتبة بايزيد في تركيا، وطبعة سابقة للمستشرق زيبولد.

أما "المُغرِب" فقد اعتمد في تحقيقه على نسخة بخط ابن سعيد، آخر من توالوا على تأليفه.

واعتمد في تحقيق الطبعة الأولى من "الدرر" على نسخة نفيسة تملكها الزبيدي اللغوي، ووقفها مع ما وقفة من الكتب لانتفاع طلاب العلم بها، وعليها تعليقات للمؤرخ شمس الدين السخاوي. وأضاف إليها في الطبعة الثانية مخطوطةً أخرى عثر عليها معهدُ المخطوطات بجامعة الدول العربية، في الخزانة العامة بالرباط.

واتخذ شوقي ضيف منهجًا سليمًا للتحقيق؛ فقد لجأ أولَ ما لجأ إلى توثيق عنوان الكتاب ونسبته إلى صاحبه، فذكر في "الردّ على النحاة" أنّه جاء في أول المخطوطة أن مؤلفها ابن مضاء، وجاء في تضاعيف الكتاب ما يدلُّ على أنَّ مؤلِّفَه أندلسي معاصرٌ للسهيلي المتوفى عام ٨٥١هـ، وعلى أنه ألّفه بعد هذه السنة؛ لأنه حين ذكر السهيلي أعقبه بقوله: "رحمه الله"، وأنّه ألّفه في عصر يعقوب ابن تاشفين ثالث خلفاء الموحدين، الذي امتد حكمه من ٥٨٠هـ إلى ٥٩٥هـ. كذلك يلحظ مَن يقرأ الكتاب أن صاحبه يبيح حذفَ الفاعل، وهو رأيٌ نسبه السيوطي في "جمع الجوامع" لابن مضاء (٢). واتّبَعَ هذا المنهج في توثيق "الدرر" و"السبعة".

وعَرض ما في "رسائل الصاحب" على ما رواه له ثقات الأدباء والمؤرخين، فوجد رسالةً منها في "يتيمة الدهر" للثعالبي، وأخرى في "خزانة الأدب" للبغدادي. كما عرضها على التاريخ، فوافق ما

تضمنتْ من الأحداث والأحوال ما رواه الثقات من المؤرخين عن دولة بني بويه. ووجد فيها من أحوال دولتهم وأخبارها وذكرِ رجالها ما لا يدعُ شكًّا في أنها لوزير من وزرائهم. ومن الأمور التي تخص الصاحب كاستقبال عضد الدولة إياه، واهتمامه بالمعتزلة ومذهبهم - ما لا يترك ريبة في أنَّ كاتبَها هو الصاحب إسماعيل بن عباد، الوزير المعتزلي.

واعتمد في كتاب "السبعة" على نسختين متأخرتين، ولكنه أضاف إليهما كتاب "الحجة" لأبي علي الفارسي تلميذ ابن مجاهد وشارح كتابه، فصحّ له التحقيق.

ووصف منهجه في تحقيق "رسائل الصاحب" بأنه صحّح غلطها، وقوّم تحريفها جهدَ الطاقة، ونشرها نصًّا كاملاً صحيحًا إلا كلمات قليلة تعوزها المراجعة، وأثبت بين أقواس كلماتٍ يقتضيها سياق الكلام، قدّر أنها سقطت من الناسخ، ولم يزد على هذا إلا ترقيم الرسائل في كل بابٍ ليسهل الرجوع إليها. (أ). وهو منهج سليم عندما يعتمد المحقق على نسخة وحيدة.

أما في تحقيق "الخريدة" فقد وضع المختصَر الذي صنعه علي رضائي لها وسماه "عود الشباب" رصدًا على ما عثر عليه منها، واعتمد عليه في إعادة ترتيب أصوله التى كانت أوراقًا مشتتة، وفي التحقيق أيضًا. وتناول النصَّ، فرمّم ثغراتِه، وعرضه على كتب اللغة وكل ما أمكنه من كتب مخطوطة ومطبوعة، وخاصة تلك التي استمدت منه مثل "المغرب"، فأفاد منها جميعًا فوائد جمة. (ح).

وذكر في "المغرب" وغيره من الكتب التي حققها أنه أفاد فوائدَ جمة من معارضة هذا النص على الأصول التي استمدَّ منها، والفروع التي أخذت عنه، وخاصة فيما صادفه من محو أو تآكل (الأندلس ح).

ومن ثَمَّ برزت الكتب التي حققها الدكتور شوقي ضيف وضيئة مشرقة، قد توفرت لها أسباب السلامة والإبانة التي يسعى لتملكها كلُّ محققٍ مجيد.